عادل عزت

العرب القدماء

شعر

الأيادي

العرب القدماء

عادل عزت

الأيادي

العرب القدماء

المؤلف : عادل عزت

الناشر : الأيادي للنشر والتوزيع - تليفون : 39 24 476 012

الطبعة الثالثة : القاهرة 2009

رقم الإيداع بدار الكتب : 3549 / 2009

جميع الحقوق محفوظة

افتتاحية

أقـفُ بأعتـابِ القـرآنِ شَفيـفَ النـفْسِ طَروبًا وخائفًا من الأصْفادْ.

مُجتازًا طفولتي وصبايَ : مدينتينِ من الأشجارِ والأشواقِ والإنشادْ.

قالتِ اتْبَعْنِـي فَـتَبِـعْـتُها . صبيٌّ يُدارِي طفولةً فيهِ وصَـبِـيَّـةٌ أنثَـىٰ . أخَـذَتْـنِي إلىٰ مـكـانٍ يأتـيـهِ الـغـروبُ قُـبَـيْـلَ الأماكـنِ الأخـرَىٰ ... جـسَـدانِ وأشجـارٌ وزقْزقَاتْ.

صارتِ الروحُ قادرةً فتلاشَتْ من حولِها البيوتْ.

عادتِ الحياةُ إلى أيامِها الأولى : آمادٌ تُفضي إلى آمادْ.

لكنني أرجِعُ إلى بَيْتِي فيأتي الليلُ إلَيَّ وأنا في غُرْفةٍ مظلمةٍ وحدي . أَسْتأنِسُ فيها بأنوارٍ خفيضةٍ تنامُ عندَ نافذتي . أكادُ أسمعُ الأشياءَ من حولي وثَمَّةَ غَيْبٌ يُسائِلُني : مَنْ أنتَ ؟! من أنتَ ؟! لماذا يا صبيُّ هذهِ الأحزانْ ؟!

تسابيحُ ، ونَشيجٌ رائعٌ كأنَّهُ قادمٌ مِنْ مكةَ ، وآياتٌ مِنَ القرآنْ .

في المسجدِ لَمَسَتْنِي عباراتُ الشيخِ فَحُوصِرْتُ بالنورِ . وفي غَمْضَةِ عينٍ كنتُ على فَرَسٍ أبكي ذاهبًا لأحاربَ الأحزابْ .

تجارةٌ رابحةٌ لو أموتُ لقاءَ نَظْرَةٍ راضيةٍ مِنْكَ أيُّها النبيُّ أو لقاءَ لمسةٍ تُبارِكُ رأسِيَ الممتلئَ بالعذابْ .

ما مَـرَّتْ ليلـةٌ في صِـبايَ إلا وتَمَـنَّـيْـتُ فيها عبورَ الصَّحراءِ إليكَ ، واسْتَمْطَرْتُ اللـهَ نادمًـا مُـتَـناسيًا غُروبًا : جسـدينِ وأشجارًا وزَقْزَقاتْ .

أعترفُ : كانَ ما بجسدي يَـفُوقُ مَـقْدِرَتي على العَفَافْ .

وكانتِ الصَّبِـيَّـةُ سَـكَنًا كُلَّما أوَيْتُ إليـهِ نَسِيْتُ الكثيرَ من الآياتْ .

لكنها أيامٌ وَلَّتْ وتَبَاعَدَتْ ففي غَفْلَةٍ مِنِّيَ صِرْتُ شابًّا تُولَدُ في روحِي كلَّ يومٍ آلافٌ من الطيورْ .

طيورٌ ما أمكنني أنْ أُحرِّرَها وأتحرّرَ منها إلا بأشعارٍ كأصواتٍ هادرةٍ تَذْهَبُ في الأفقِ الأعلَى، كأنَّ شموسًا تنزِفُ داميةً في البحارْ .

أشعارٌ ما إن أفْلَتَتْ مِمَّنْ كَتَبَها حتىٰ
فاجأتْهُ فَحَطَّمَتْ جدرانًا واسْتَخْرَجَتْ
ملائكةً وأحجارًا مِنَ النفوسْ .

وها أنا الآنَ أبدأُ كهولتي فأَرَىٰ روحَ
القرآنِ أرواحَ الأسلافْ .

فَـرَّقَ بـيـني وبيـنَ صِـبـايَ كُـتُـبٌ قليلـةٌ وأنغامٌ كأنَّ أصحابَها خُـلِـقـوا من الـنـورِ . كـتـبٌ وأنـغـامٌ قـدْ أتَـتْ إلـيـنـا مـن أُنـاسٍ آخـريـنَ لَـمْ يـعـرفـوا شيئًا عن الرسولْ .

صارَ الزمنُ النَّـبَويُّ جزءًا من الزمنِ العربـيِّ جزءًا من الأزمـانِ وأنا أُلاحِقُها جميعًا قبلَ أنْ أزولْ .

الحركة الأولى

غِنـاءُ البـلابـلِ في اللـيـلِ نـورٌ إذا مـا تَحَوَّلْتُ طيْفًا تلاشَـيْتُ فيهِ وقدْ كُـنْتُ قَبْلاً سجينَ مكانِي .

غِنـاءٌ غِنـاءٌ وبينَ الغِنـاءِ وهذي الليالي صِـلاتٌ من العشـقِ والجـبروتِ الإلهيِّ والحُـزْنِ ... جاء الذي يشتـريني بما لَـسْتُ أقدِرُ أن أشتـرِيْهِ ... بِبَعْضِ حروفٍ سَـرَىٰ الغيـبُ فيها ، بحُـلْمٍ سَـرَىٰ اللـهُ فـيـهِ . كأنَّ الضـيـاءَ بِـهِ ، والـنـفـوسَ بِـهِ ، والثوانِي .

لقد كُـنْتُ في مَـرْكَـبٍ راحلٍ نحـوَ أهـلِ الجـزيـرةِ يَـمْـلَـؤني قَـدَرٌ دمـويٌّ وقُـلْتُ سأصْرخُ عَـبْـرَ الصحـارِي فـتـأتِـي خـيـولٌ إلـيَّ وتُـبْـعَـثُ رُوحٌ غَـفَـتْ فـي الزمانِ .

تأخـرتُ عـنـكُـمْ رفـاقَ القصيـدِ وهـا قد أتـيـتُ وهـاكُـمْ أوانِـي .

لـقـد عِـشْـتُ دهْـرًا أخـافُ زيـارتَـكـم فاغْـفـروا لي نكوصي ، وغَـفْـلَـةَ رُوحي . أجِـيءُ إليـكـم جَـزُوْعًـا ومضـطربًـا . كـلُّ شـيءٍ بقلبي يميلُ لصوت الحُدَاءِ .

هجيرٌ تَسَلَّلَ في النَّفْسِ نورًا عَتِيًّا
فأبعَدَنِي عن سنينٍ من الغَيِّ عَبْرَ الليالي
فَصِرْتُ حَرِيًّا بإدراكِ معجزةِ العربيِّ
مع الصَّحَراءِ .

عَجُوْلاً إذا ما يُرَى شاحِبًا وَجِلاً
ثُمَّ يُنْشِدُ شِعْرًا ! رمالٌ يُسافِرُ
فيها فَيُوصِلُها برمالٍ كأنَّ الرحيلَ
ذَهابٌ إلى عَدَمٍ أبَديٍّ ولكنهُ راحَ
يُنْشِدُ شِعرًا !! تأوَّهَ من وَحْشَةِ
النفْسِ في القَيْظِ ، من جَسَدٍ خَشِنٍ
حَنَّ للماءِ بَلْ للإماءِ . يُعانِدُهُ قَدَرٌ
ضَنَّ بالزادِ . يا لَلرَّحيلِ مهالِكُهُ في
ازْدِيادِ .

كـأنَّ الـصـحـارِيَ حـاشـيـةٌ لـلـجـحـيـمِ
ولـكـنـهُ رَاحَ يُـنْـشِـدُ شِـعْـرًا ! سـأمـكُـثُ
دَهْـرًا لـديـكُـمْ لَـعَـلَّ الـلـيـالي الـتـي قـد
أتَـتْ لامـرئِ الـقـيـسِ تـأتـي إلـيَّ . لَـعَـلَّ
الـنـسَـاءَ يُـغَـرِّرْنَ بـي ويُـخَـلِّـصْـنَـنِـي
مِـنْ فـؤادِي .

سأهجرُ عُمْرًا من الحَذَرِ المستريبِ ...
تـقـدَّمْ من الـبـرقِ واخْـلَـعْ ثـيـابَـكَ
عـنْـكَ ، وخُـضْ في الـجـبـالِ ونَـمْ في
الـقِـفـارِ وغَـنِّ . تـقـدَّمْ بـغـيـرِ نُـكـوصٍ
وقُـلْ لـرفـيـقِ الـقـصـيـدِ أعِـنِّـي ...
أعِـنِّـي لأهْـجُـرَ نَـفْـسِـي وأُصْـبِـحَ نـارًا
خـلالَ العراءِ .

سـرابٌ سـرابٌ وبِـيْـدٌ تـسـافـرُ فـي الـشـمـسِ ضـائِـعـةً ؛ ولـذا بـعـد يـومِ رحـيـلٍ ولـيـلـةِ خـوفٍ سـتَـمـلِـكُ عَـيْـنُـكَ حَـدْقَـةَ صَـقْـرٍ ، ويأتي لِسَـمْـعِـكَ خَـطـوُ القوافـلِ قادمةً من بـعـيـدٍ ... سَـتَـسْـتَـشْـعِـرُ الـخـطـرَ الـمـخـتـفِـي فـي الجبـالِ وعَـبْـرَ الـرمـالِ . تـعَـلَّـمْ متـى تـتـعـجَّـلُ أمـرَكَ دونَ مـهادنـةٍ وتعَلَّمْ أوانَ التوانِي .

أتَتْكَ مُهَرْوِلةً – أَمْ أتَتْ لخيالِكَ – أُنثَى. يُحيطُ بها الطِّيْبُ والخـوْفُ . عينانِ من ظُـلُماتِ السـمـاءِ ، ونَـفْسٌ مِنَ القَـيْـظِ والإشتهاءِ.

تَخَفَّيْتُمَا في مَغَارٍ فَكادَ المَغَارُ
يُضيءُ فَخَفِّفْ مِنَ النارِ خَفِّفْ مِنَ
الإنْتِشَاءِ .

حُداءُ حُداءُ فَهَيَّا انْدمِجْ بغناءِ
الرحيلِ وحاذِرْ فإنَّ رَحيْلَكَ
مُلْتَصِقًا بهوادجِهنَّ سَيُوقِظُ رِيْبَةَ
بَعْلٍ غَيورٍ وليسَ هنالكَ أسهلُ
مِنْ قَتْلِ مثلِكَ ... لا حيلةٌ لا نصيرٌ
لَدَيْكَ فَخُذْ جانبًا وانْدَمِجْ في
الغناءِ .

تَـمُـرُّ ريـاحٌ تُـوزِّعُ من حولِـنا حُـلُـمًا
وغَـمَـامًا كـأنَّـا غَـفَـوْنـا خـلالَ الـرحـيـلِ
كـأنَّـا أُسِـرْنـا ، فَـتـأخـذُنـا فَـتُسَلِّمُـنَـا
للجبالِ .

وهـا مَـكّـةُ : كـعـبـةٌ وحَـجـيـجٌ وعُـرْبٌ
مُشَـتَّـتَـةٌ جَمَّـعَـتْ نَـفْسَها فيكِ يا مكةً .
ميمُكِ المُـنْتهَى ، كافُكِ المِسْكُ . آخرُ
حرفٍ تَحَوَّلَ حَـرْفينِ هاءً وتـاءً : هديرًا
وتَمْتَمَةً فكأنَّ النهارَ يُسارعُ مُـختفـيًا ،
ويُـرَى الليـلُ من خَـلْفِـهِ دافـعًا قـادمًا
نَـحْـوَنـا مُـخْـفِـيًا كُـلَّ شـيءٍ بداخـلِـهِ .
لا يُؤرّقُهُ غيرُ نورِ المشاعلِ ، والدَّمَعَاتِ ،
وأفئدةِ الشُّعراءِ .

أتَتْنِي روائحُ عِطْرٍ عميقٍ خيوطَ حريرٍ بغَير مَدًى . لَسْتُ أدري مَتَى قَدْ تأجَّجَتِ السُّوقُ حَوْلي . كأنَّ بدايتَها أُفُقٌ ، ونهايتَها أُفُقٌ .... بَشَرٌ بَشَرٌ ... لو وقَفْتَ علَى جبلٍ ونَظَرْتَ لهم من عَلٍ لرأيتَ أُناسًا يُعذِّبُهم ما بأعماقِهم . تلكَ أفئدةٌ خَلَقَتْ زَمَنًا خالدًا . لم يَكُنْ مُظْلمًا فالذى يَسْبِقُ النورَ ليسَ الظلامَ . كأنَّ الليالي تصاعَدْنَ حتَّى انْدَمَجْنَ بنورِ النجومِ انْدماجًا فَلَمْ نَسْتَطِعْ أن نُسمِّيَهُنَّ الليالي .

بَـكَـيْتُ بسوقِ الجواري بغَـيْـرِ دمـوعٍ .
يسائلُـنـي أحَدُ المشـتـرينَ " **أخـي أيَّـهُـنَّ تُـفَـضِّـلُ**؟ " قـلـتُ أَرَاهُـنَّ أُمـي وأخـتـي وزوجـي" وفـارقْـتُـهُ . جَذَبَـتْـنِـي مـشاعِـلُ تُوقَدُ فوقَ الجبالِ .

وفـي الـحـانِ جـالَـسَـنـي بـدويٌّ إذا مـا تَـكَـلَّـمَ يَـنْشُرُ مِنْ حولِهِ قلَقًا مُـسْـتَـفـيضًا . تَـوَغَّـلْـتُ في نَـفْـسِـهِ دونَ وَعْـيٍ رأيـتُ نُـسـورًا تـعـيـشُ بـهـا وقبـورًا مُـجَـلَّـلَـةً بالدِّماءِ .

مَـعَـانٍ مِـنَ الغـيـبِ تَـجْـمَـعُ ما بَـيْـنَـنَـا .
كـانَ يَـرْقُـبُـنـي وقِـحـًا مُـسْـتَـفِـزًّا فـلا
أتـأذَّى . ولَـمَّـا تَـسَـلَّـلَ في جـسْـمِـهِ
الخَـمْـرُ أحْـسَـسْـتُـهُ راحـلاً عـن مـخـاوفِـهِ
تاركًا وَجْـهَـهُ يـسـتـريـحُ لِـمَـرْأى نجومِ
السماءِ.

يحارُ قـلـيـلاً فَـيُـعْـرِضُ عـنـهـا ويُـصْـغِـي
إلى الصحَراءِ .

وقالَ : " مِـنَ الـجـهـلِ ألا تـكـونَ ظَـلـومًا غَـشـومًا بِـبِـيـدٍ بـهـا الـمـاءُ قَـدْرَ الدماءِ .

أنـامُ لـيـالِـيَّ والـنَّـفْـسُ يَـقْـظَـى تَـشُـمُّ الـريـاحَ . أقـادمـةٌ بـهـبـاءٍ وغَـمْـغَـمَـةٍ أمْ بـهـا مَـنْ يُـريـدونَ قَـتْـلِـي ؟ ثـلاثَ سـنـيـنٍ بـهـا الليـلُ : نَـفْـسِـي تُـنَـبِّـهُ عَـيْـنِـي ، وعَـيْـنِـي تُـغـالِـبُ نَـفْـسِـي فَـمَـنْ ذا الـذي نـامَ مُـسْـتـيـقـظًـا لا يُـفـارقُـهُ الشَّـجْـوُ غَـيْـرِي؟ ! كَـأنَّ إلَـهَ الـظـلامِ أرادَ جـلـيـسًـا لَـهُ فاصْطَفَانِي .

بِبادِيَتي قد رأتْني النساءُ دميمًا .
لَعَلِّي كذلكَ لكنَّ أَجْمَلَهُنَّ أتَتْنِي
مُدَلَّهَةً تَتَعَثَّرُ في الليلِ . قُلْتُ لها
سافِحِيْنِي . كِلانا بلا نَسَبٍ فكأنَّ
أبانا الصَّدَى غابَ في جَبَلٍ وانْتَهَىٰ .
سافِحِيْنِي فما امْتَنَعَتْ . صِرْتُ جِنًّا
طروبًا ينامُ الضُّحَىٰ ، ويُضيءُ جوانِحَهُ
في الظلامِ .

أَجِنِّيَّةٌ قد أتَتْنِي أمِ امْرأةٌ أمْ أنا
سادِرٌ في مَنامي ؟

أكـادُ أرَى ألفَ عَيْنٍ حَقُودٍ تُراقبُ خَيْمَتَنا . تتمنَّى الدخولَ علينا وتخشَى حُسامِي .

نُهَيْرٌ بقَفْرٍ مرورُ يَدَيْها علَى جَسَدِي . إنني الفارسُ الفَرَسُ الفَذُّ بينَ يَدَيْها بَكَيْتُ كأني لديها اخْتَبأتُ فما عادَ يَتْبَعُني قَدَرِي . آهِ يا شَظَفًا مُسْتَفيضًا بِتيكَ البوادي دَفَعْتَ بنا نَحْوَ قَتْلٍ وسَلْبٍ وأبقَيْتَنا في ارْتِقابٍ لمَنْ يُضْمِرُ الشأرَ منَّا ومَنْ يتحَرَّقُ للإِنْتِقامِ" .

فقلتُ لهُ وأنا أتسَلَّلُ في نَفْسِهِ فأَرَىٰ دَوْحَةً مِنْ زهورٍ تموتُ : لماذا الْتَجأتَ لمكةَ؟ قال :"**هروبًا ... تعالَ معي نَسْتَعيدُ مكانًا قَصِيًّا ... رمالٌ وصَمْتٌ تسلَّلَ حولَ الخيامِ.**

وها غادرٌ ما اسْتَطاعَ مُغالَبَةً للشياطينِ في نَفْسِهِ فتسلَّلَ في غَيْبَتي لِفِراشي .. إليها إليها .... وحينَ رَجَعْتُ إذا ما تَرانا فَنَحْنُ ثلاثةُ أشياءَ لَيْسَتْ تَعي : خَيْمَةٌ وأنا وحُبَيِّبَتي بينَ كفَّيَّ مذْبوحةٌ . لَيْتَني قبلَ ذاكَ رأيتُ مماتي .

تعالَ معي ... سَيِّدُ القومِ صِهْرٌ
لقاتلِها فَحَماهُ وأرسَلَ مَنْ يتوعَّدُني
فاخْتفَيْتُ . وما إنْ أتَىٰ الغَيْثُ عُدْتُ .
ظلامٌ بغيرِ نجومٍ يخبِّئُني ، واضْطرابُ
المياهِ يُكتِّمُ صوتَ قدومي ، ولا نارَ
مُشْعَلَةٌ . عَشرةً قد قَتلْتُ . تَرَكْتُ
القبيلةَ خلفِيَ داميةً وابْتَدأتُ هُيامي .

مكانٌ بِهِ عَتَمَاتٌ يُسَلِّمُني لمكانٍ بِهِ
الشمسُ تَنْهَشُني . أتمنَّىٰ لها أنْ تزولَ
وأخْشَىٰ قدومَ الظلامِ .

وحـيـنَ أرَى البـيـدَ جَـاثِـمَـةً مِـنْ أمـامـي أُعـانِـدُها إذْ أروحُ إلـيـهـا وأتـركُـهـا خـلـفَ ظَـهْـرِي وألـعَـنُـهـا فإذا بي مُـحـاطٌ بِـبِـيْـدٍ أشَـدَّ مُـعـانَـدَةً . أيـنـمـا أتَـلَـفَّـتُ فـهْـيَ أمامي .

كـأنـكِ نَـفْـسـي نـفـوسٌ تَـنَـازَعْـنَ أيـنَ الـمَـسـيـرُ ولـكـنَّـهُـنَّ اتَّـفَـقْـنَ عَـلَـيَّ . عَـلَـى العاشقِ المُسْتَهامِ .

بتَمْرٍ قليلٍ ، بجُرْعةِ ماءٍ أُؤَانِسُ نَفْسِي وبالشِّعْرِ أسْتأنِس البِيْدَ حولي وليسَ سِوىٰ ناقَتي موطِني ولِثَامي" .

توغَّلْتُ في نَفْسِهِ – وكِلانا يُداري بكاءً – رأيتُ أمامِيَ طفلاً حَبيسًا .... وها جاءَ فَجْرٌ حَيِيٌّ يُفَرِّقُ ما بَيْنَنا ويُبِيْنُ الحياةَ فقُلْتُ وداعًا . رحيلُكَ مثلُ رحيلي بغيرِ مُقَامِ .

الحركة الثانية

أكادُ أَجزِمُ أن الليلَ كان مِلْكًا للجِنِّ في الزمانِ القديمِ . يتقافزونَ ، ويتصارعونَ ثم يختفونَ في نورِ النجومِ أو في الريحِ ، وكانت الصَّحْراءُ نَسْيَا .

الصَّحراءُ أحلامًا تحتَ آلافِ النجومِ هي الصحراءُ رمالاً مُسْتَفَزَّةً من عواصفِ الهجيرِ ... أقداراً ، وظُلمَةً كثيفةً وأنا في التِّيْهِ جَسَدٌ وحيدٌ بغيرِ أنثَى . أنامُ في السعيرِ ، وأبكي شغَفَا .

أتَذَكَّرُ ... قالتْ " في كلِّ ليلةٍ وأنتَ جانبي أشعرُ أنها أولُ ليلةٍ خَلَقَها اللهُ . أبْدَؤها وأنا عذراءُ ثم نرْحلُ معًا حَتَّىٰ تُسَلِّمَنِي للفَجْرِ امْرأةً كاملةً تَغْسِلُها الأنْداءُ . كأني آتيكَ شُجَيْرَةً وأذْهَبُ عنكَ خَميلَةً . في كلِّ ليلةٍ أنا عذراءُ . فلماذا سَتَنْأَىٰ ؟ ! "

قلتُ : "أصواتٌ غامضةٌ نادَتْنِي كأنها خيوطٌ تجذِبُني . سأرحلُ إليها . لا أملِكُ منها هَرَبًا".

وها جئتُ إلىٰ بِيْدٍ أحاطَها اللهُ ببحرٍ، وخليجٍ، ومحيطٍ فَما خَفَّفُوا مِنْ بَطْشِ حَرِّها بَلْ جعلوها أكثرَ بُعْدَا .

لستُ أدري مَنْ أولُ تعيسٍ جاءَ إليها ليعيشَ فيها . أتخيَّلُهُ وهْو عابرٌ من رحيلٍ مُمْتلئٍ بالمهالكِ إلىٰ رحيلٍ مُمْتلئٍ بالمهالكِ مُصْطَحِبٌ زوجةً، وناقةً، وبعيرًا، ومُصْطَحِبٌ مصيرًا شَقِيّا.

لَـمْ يـمُـتْ ظـمـأً ولا سَـغَـبـًا ! كـيـف لَـمْ يَـمُـتْ شَـوْقـاً إلـى معـيـشـةٍ أخرَى ؟!

أكـادُ أجـزمُ أن عـهـودَ الـجـنِّ اضْـمَـحَـلَّـتْ حيـنَ أتَى عـلـيـهـا مَـنْ هُـمْ أعْتَى .

الذينَ يَرْكُضونَ تحتَ شمسِ الهجيرِ ثم يختفونَ كأنما ابْتلَعَتْهمُ الرمالُ . كلما زادتْ أجسامُـهُـمْ نُـدُوبًا ازْدادوا جَسارةً ونَزَقَا .

ما الذي أبْـقـاهم تحـتَ سمـاءٍ تَـبْخَـلُ
بالغَيْثِ ، وشَمْسٍ تزدادُ عَسْفَا ؟!

كـأنَّ نـفُـوسَـهُـم نـيـرانٌ مُـتَـقـاتِـلـةٌ .
كـلٌّ يـزعـمُ أنَّـهُ أعْـلَـى مِـنْ نِـدِّهِ
لَهَبَا .

يـا لَـهُ مِـنْ جـحـيـمٍ فـكـيـفَ بَـزَغَـتْ
فـيـهِ لغةٌ لا تَـسْـتَـعْـصِي عَـلَـى الإيـقاعِ ؟!
لـغَـةٌ عـربـيـةٌ كـأنَّـهـا امْـرأةٌ جَـمُـوحٌ .
مَـنْ يَـقْـدِرْ عـلـيـهـا يـأخُـذْ مـنـهـا
عَجَبَا .

كأنني أَرَاهُمْ – والليلُ تَسْبَحُ فيهِ النجومُ جميعًا – إذْ جاءَتْهُم مشيئةٌ مِنَ الغَيْبِ ، ومِنْ أنْفُسِهِمْ : كونوا أُمَّةً أُخرَىٰ .

فَأتاهُمْ مَنْ سيَجْعَلُ الآفَاقَ مِلْكًا لَهُمْ وقَدْ كانوا مِنْ قَبْلِهِ أسْرَىٰ .

أكادُ أَجزِمُ أنني رأيتُهُ وهْو صَبِيٌّ يَتَساءلُ : ماذا تقولُ النجومُ للنجومِ ؟ وماذا يَخْتَفِي وراءَ الجبالِ؟ ولماذا القوافلُ نحوَ مكةَ تَسْعَىٰ ؟

لكنَّهُ يُغادرُ صِباهُ حَثيثًا فَإذا بِهِ فَتًى يَشْعُرُ أنَّ بَيْنَ قَلْبِهِ وبَيْنَ السماءِ صِلةً كُبْرىٰ .

يا مُخْتَلِيًا في غارِ حِراءٍ إنَّ أيامَ عُمْرِكَ أعْوامٌ مِنْ أحْزانٍ كثيرةٍ ، ورؤًى تَحْتَوِيكَ في ثوانٍ مُباركةٍ ثمَّ تَنْأَىٰ .

ظُلْمَةٌ فَوْقَها نورٌ وتَحْتَها نورٌ كَصَبَاحَيْنِ يُحيطانِ بلَيْلٍ فإنْ جاءَتِ الأنْغامُ عليهم صارَ كُلُّ شيءٍ بَدَدَا .

لَقَدْ ظَنَّ أَهْلُ الجَزيرةِ أَنَّهُمْ قدِ اسْتَحْوَذوا علَى المعانِي جميعًا حَتَّى أتاهمُ الفقيرُ بآياتٍ كانوا يَفِرُّونَ منها إلا قليلاً مِنْهم قَدْ جَعَلَ من الآياتِ مأوَى .

كلُّ اللَّحَظاتِ عَسيرةٌ ، وكلُّ اللَّحظاتِ هَنيئةٌ ، والأيامُ القليلةُ مُتَّسَعٌ لأقْدارٍ شَتَّى .

أَتَذَكَّرُ ... قالتْ : " **لَنْ تَصْبِرَ عنّيَ بُعْدَا** " .

والآنَ أجزمُ أنَّ الجنَّ أقَلُّ حيلةً مِنَ الحروفِ . أولئِكَ الذينَ يَتَشابَكونَ ويَتَفَرَّقونَ ويَصيرونَ قُرْآنًا وشِعْرَا.

الحركة الثالثة

بَـيْـنَ الـزُّخْـرُفِ والـمـعـارجِ درجـاتٌ وآمـادٌ كالـتِـي بـيْـنَ الأرْضِ وآخـرِ النجومْ .

إننِي ذو حَظٍّ عظيمْ .

ما إنْ مَـلَـكْـتُ الشِّـعْـرَ مرةً أخرَىٰ حتَّىٰ مَلَّـكْـتُـهُ روحِي فَـحَـرَّرَها من التجَّارِ ثمَّ أسَـرَها إلىٰ حيـنٍ في الزمـنِ العـربيِّ القديمْ.

كـأنـنِـي إحْـدىٰ الـرؤىٰ في بـسـاتـيـنَ قَـدْ غَـلَّـقَـتْ أبْـوابَـها لأكـثـرَ مِـنْ ألـفِ عامْ .

أختارُ أزمانًا قليلةً مِنْ أزْمانٍ كثيرةٍ فأرَىٰ الأنبياءَ مِنْ بَعْضِهِمْ يَقْتَربونْ .

حضارةً تَبْدأُ من آدَمَ : قِطْعَةُ الطينِ المُحَمَّلَةُ بالأسماءِ ، والآثامْ .

ذُرِّيَّتُهُ ظلامٌ مخيفٌ من الناسِ تومِضُ بِهِ الأنبياءْ.

فيشمَلُني ليلٌ نجومُهُ آياتٌ من القرآنْ .

خَضَعْتُ لجلالِهِ وما خَضَعْتُ لَهُ فاشْتَبَكَتْ في نَفْسِيَ الأحزانْ .

نَعَمْ إنني المُعَذَّبُ ذو الحظِّ العظيمْ .

أتحَرَّكُ مشْدوداً بفصولِ الجزيرةِ : درجاتٌ أَوَّلُها الزّمْهَريرُ وآخِرُها الهجيرْ .

ومحمَّدٌ يقولُ أنا النبيُّ فَاتْبَعُونِي. خادِعَةٌ مَباهِجُ الحريرْ .

فَتعالَوا إلى إلهٍ واحدٍ يَصْحَبُكُم في رِحلَتِكم من غَسَقِ الأرحامِ إلى ظُلُماتِ القبورْ .

إلى أينَ تمضِي مُهرولاً أيُّها العربيُّ ؟ تَمَهَّلْ قليلاً ، واسْتَمِعْ إلى كلماتٍ مِنْ بَعْدِها أنتَ قادرٌ على نَفْسِكَ ، وعلى الصحراءْ .

آياتٌ قادرةٌ عليكَ لا مَهْرَبَ منها . إنّها الآنَ آخذةٌ في التَّرحالِ إلى كلِّ مكانْ .

تَحْمِلُ أصواتًا أشَدَّ قسْوَةً مِنْ تفجُّرِ الجبالْ .

جحيمًا أمامَ عينيكَ ينفُثُ وعيدًا ، وأشباحًا ثمَّ لا تَلْبَثُ أنغامُ النارِ أنْ تَتلاشَى، فأنتَ حيثُ الأنهارُ والظلالْ .

اللهُ في الكتابِ نورٌ تَنْبِضُ بِهِ المعانِي يُهَيْمِنُ علَى كلِّ الأمورِ مُتعاليًا ويَتَحَسَّرُ على الإنسانْ .

بـيـنَ الـزُّخـرفِ والمـعـارجِ ثَـمَّـةَ رُؤًى
أكثرُ وضوحًا من النجـومِ . قد تَجَمَّـعَـتْ
في لـيـلـةٍ من الليـالي بَـيـنَ المَسْجِدَيـنِ
الأقْصىٰ والحرامْ .

ها إنَّـهُ يـقـولُ أنـا الـنـبـيُّ فاتْـبَـعُـونـي
فـرأىٰ نُـفـوسًـا عَـصِـيَّـةً كـأنَّـهـا قـد
خرجَتْ من الصخورْ .

وفـي سِـنـيـنَ قـلـيـلـةٍ صـارَتِ الـصَّـحـراءُ
طـائـعَـةً لَـهُ فـتـراءَتْ مـن حـولِـهـا
المـمـالِـكُ في شَـيْـخـوخـةٍ تَـتَـأَهَّـبُ
للسقوطْ .

والعَرَبُ في شبابٍ ذي بَطْشٍ شديدْ .

" المدينةُ " صارَتْ تَفْعَلُ ما تُريدْ .

تَبْعَثُ الرجالَ والقرْآنَ إلى كُلِّ صَوْبٍ فيأتِي إليها مِنْ كُلِّ صَوْبٍ سبايا وأسلابٌ وعَبيدْ .

خَرَجَ الأعْرابُ من سجْنِ الصحراءِ فَلَمْ تَعُدِ الآفاقُ الذاهِبَةُ إلى الصينِ بعيدةً . لَمْ يَعُدْ كِسْرَى مخيفًا . تراءَتْ أمامَ عُيونِهِمْ حدائقُ ، وأغانٍ ووعودْ .

هُمُ المُكْتَوونَ بالهجيرِ قد دخَلوا على نِساءِ الشعوبِ المكتوياتِ بالأنهارِ والثلوجْ .

فأنشَئُوا نَسْلاً جديداً سوفَ تَخْضَعُ لإرادَتِهِ القُلوبْ .

تَبَارَكَ الذى خَلَقَ الأقدارَ جميعًا ، وأقامَ أمامَ عيونِنا أنواراً حَجَبَتْ عَنَّا الأسرارَ جميعًا فلا تَتَحَسَّرْ أيُّها العربِيُّ إلا قليلاً علَى سلطانِ المدينةِ الذي ولَّى وغابْ .

ماتَ النبيُّ وقد كانت الأمورُ خُيوطًا
بأناملِهِ يُحَرِّكُها كيفما شاءْ .

سَتَمُرُّ أعوامٌ قليلةٌ يُقْتَلُ في
آخِرِها ذاكَ الذى كانَ قلْبُهُ عَنُودًا
حتَّى فَتَّتَهُ القُرْآنْ .

فَصارَ أعْتَى الحاكمينَ عَدْلاً وروْعَةً ...
ألا إنّهُ ابنُ الخَطَّابْ .

مِنْ بَعْدِهِ كَبُرَ كثيرٌ مِنَ الصحابَةِ
عُمرًا وثراءً فَجَفَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا
فاحْتُلَّتْ مَدينتُهم في غَفْلَةٍ مِنْهُم
وسَيْطَرَ الأغْرابْ .

مِسْكينٌ يا عثمانُ ما كانَتِ الخِلافَةُ
سِوَىٰ قَدَرٍ مُهْلِكٍ أتاكْ .

شَمَمْتَ روائحَ الموتِ تَنْفُذُ إليكَ
مِنَ النوافِذِ والأبوابْ .

إذْ حاصَروا بَيْتَكَ ثم قَتَلوكْ .

والآنَ يبدأُ أهْلُ الجَزيرةِ في الذَّهابِ
إلىٰ زَمَنٍ كَئيبْ .

بهِ أشْعارُهم تَرْتَدُّ عنْ قَسْوتِها
وصَلَفِها لِتَصيرَ غَزَلاً مُسْتكينًا
وتَشْبيبًا . لقد أَفَلَ زمانُهم فَتَبَدَّلَ
ما لَدَيْهم من هُمومْ .

وَتَحَوَّلَ الدهْرُ إلىٰ العراقِ فأشْعَلَها بالحروبْ .

عائشَةُ زوجَ النبيِّ علَى جَمَلٍ وَمِنْ حَوْلِها يَتَقاتَلُ المُسْلِمونْ .

لكنَّها تعودُ إلىٰ بَيتِها غَيْرَ أنَّ الأقدارَ مازالتْ عاكِفةً علىٰ اخْتِلاقِ الأحزانْ .

أنصارُ عَليٍّ يَنْسَلُّونَ مِنْ حَوْلِهِ رويْداً رويْداً وَهْوَ نَفْسٌ هائِلٌ يَقِفُ وَحيداً مُعْتَرِضاً طريقَ الأمَّةِ جميعاً : لا تَذْهَبِي بَعيداً عن القرآنْ .

كانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَقْتولٌ فصارَ يَسْتَعْجِلُ قاتِلَهُ . يَسْتَعْجِلُهُ يأسًا ، وغَيْظًا مِنْ حياةٍ مَمْلوءَةٍ بالناكصينْ .

رأسُ الحُسَينِ مرْفوعةٌ علَى سَيْفٍ وَمِنْ حَوْلِها تَضْحَكُ الشياطينْ .

آهِ إنني مُرْتَعِبٌ ... أُفٍّ لهذِهِ القصيدةِ التي اسْتَدْرَجَتْنِي لِتِلْكَ الأيَّامْ .

أرَىٰ جنـودَ الخليـفةِ الفاسِـدِ يَـحْـرقونَ الكَـعْـبَـةَ ثُـمَّ يَميلـونَ علَىٰ المدينـةِ يَسْتَبيحونَ أَمْوالَها وأَعْـراضَـها لِثـلاثةِ أيـامٍ ثم يَعودونَ مِنْ بَعْدِ انْـتِـصارِهِـمْ خائفينْ .

غَـيْـرَ أنّي – داخلَ نَـفْسِـي – قـد جَـعَـلْـتُ مِـنَ الفِـتْـنَـةِ الـكُـبْـرَى جُـثَـثًا تـخْـتَـفِـي بأعـمـاقِ نَـهْـرٍ عـظـيـمْ .

قُـلْـتُ فَـلاأذْهَـبْ مُـبـتَـعـدًا عـن دولـةِ
بَـنِـي أُمَـيَّـةَ وإلا خَـسِـرْتُ بَـقِـيَّـةً مِـنْ
بَـهْـجَـةٍ في قَـلْـبِـي ، وبَـقِـيَّـةً مِـنْ مَـيْـلٍ
للنَّاسْ .

تَـبَـارَكَ الـذي خَـلَـقَ داخـلـي رِقَّـةً
عَـلَّـمَـتْـنِي كـيـفَ أكـونُ ضـاريًا إذا مـا
باغَـتَـنِـي الأوْغادْ .

لكنـنِـي أتـلاشَـىٰ حـيـنَ أسْـمَـعُ الهـديـرَ
المَهيـبَ للأبـواقِ إذْ يَـدْخُـلُ على أنـغامٍ
أخْـرَىٰ لـهـا رِقَّـةُ الأنْـفـاسْ .

عَبَقٌ ونارٌ يَتَغَلْغَلانِ في الإنشادْ .

فَكَأنّي مُنْدَمِجٌ بظلامٍ تَخْتَلِجُ بِهِ ألوانُ الماسْ .

وكأنّي أتَقَدَّمُ وَجِلاً فيحاصِرُنِي الطَرَبُ المَجْنُونُ ، والمُجُونُ في دَوْلَةِ بَنِي العَبَّاسْ .

الحركة الرابعة

حدائـقُ وَحْشِـيَّـةٌ قـد أحاطـتْ بقَـصْرِ الخليفةِ ، والقصرُ عمَّا بِداخِلِهِ لا يبوحُ بشيءٍ سوَى بعضِ نورٍ وهَمْسٍ ، ولستُ الذي يكتفي بالثُّمالهْ .

فـؤدايَ نـارٌ ، وإنَّ ضـلـوعِـي مَـجُـوسٌ أحاطوا بِـهِ غَـيْـرَ أنـي من المسلمـيـنَ، وأُمِّي قدِ انْتَسَبَتْ للمَسيحِ فَمَا غادَرَتْها الطّفولَهْ .

بـهـذا الـعـذابِ حَـصَـلْـتُ عـلـى ألـفِ رُؤيـا فَـصِـرْتُ مـسـاحـةَ نـورٍ ، وحـولـي مـسـاحةُ لـيـلٍ ومِـنْ حـولِـنـا ألـفُ باحَهْ .

أخَفَّ من الطيفِ سِرْتُ ... نخيلٌ يسَلِّمُنِي لنخيلٍ فلمَّا احْتَوانِي خلاءٌ أنا مَاردٌ أتجوَّلُ في رُفْقَةِ البدرِ وَحْدِي ، وظلِّي يَموجُ خلالَ الجبالِ البعيدَهْ .

أخافُ قليلاً فأشعَلْتُ نارًا سَرَقْتُ بها قِطْعَةً من ظلامٍ يؤرِّقُنِي غيرَ أني شعرتُ حروبًا تُحاصِرُنِي . آهِ صوتُ انْثِيالِ دماءٍ ، وجُنْدٌ ستأسرنِي فتلاشَيْتُ مثلَ الهواءِ ورحتُ بعيدًا . دخَلْتُ إلى قُمْقُمٍ . إنَّ فيهِ المسافاتِ ليلٌ بغيرِ نهايَهْ .

وفيهِ حياةُ السُّفُوحِ العميقَهْ .

سمعتُ بكاءَ المزاميرِ في العَتَماتِ .
صَعِدتُ إليها ، وغِبْتُ لَدَيْها . بِها قد
تَسَلَّلْتُ نحو حدائقَ وحشيةٍ ثمَّ منها
لبوَّابةٍ مُزِجَتْ بظلالٍ ومِسْكٍ ، ومِنْ
خَلْفِها ذَهَبٌ وحريرٌ . هنالكَ لُذْتُ
بصوتِ الدفوفِ التي تتواتَرُ في
بَهْوِ قَصْرِ الخليفَهْ .

تـراءَتْ لعينيَّ أعمـدةٌ تتخَـفَّـى بنـورِ القناديلِ . كنتُ أجوسُ بنورِ العيونِ ، وقلبي الذي لا يخافُ المقاديرَ كانَ يخافُ قِبابًا قدِ ازْدَحَمَتْ بنقوشٍ كثيرَهْ .

خِصالُ القصورِ عليَّ غريبَهْ .

تَجَسَّدَتِ الجاريـاتُ أمـامِـي بفِـعْـلٍ من النَّغَمَاتِ ، وكانَ الغناءُ يَفيضُ على كلِّ شيءٍ ويجْعَلُ من بَذَخِ القَصْرِ أُعجوبةً مستحيلَهْ .

صوت قَيْنَة

أتاني الهوَىٰ فاسْتَفَاقَتْ جروحُ
وصِرْتُ لَدَىٰ الليلِ طيفًا يلوحُ
لقد كنتُ أمْلِكُ نَفْسًا فَمَلَّكْتُها
مَنْ يُبَدِّدُها ، ويَروحُ
وكنتُ إذا ما حلَلْتُ بليلٍ
جعَلْتُ الظلامَ عُطورًا تفوحُ
فمالِيَ ماكثةً في انْتِظاري
أقولُ سيأتي وقلبِي لَحُوحُ
سيأتي فَيَغْفُو عَلَيَّ ، وأغْفُو
عليهِ . بهذا وذاكَ نَبُوحُ

أصوات

أتاها الهوَى فاسْتَفَاقَتْ جروحُ

وصارتْ كزهرٍ خلالَ خَميلَهْ

يُبَدِّدُهاْ عابرٌ ويروحُ

فتُصْبِحَ مثلَ الطيورِ العليلَهْ

ولَسْتُ أظُنُّ بأن الخليفةَ مُمْتَلِكٌ جَسَدًا يتحَمَّلُ هذا النعيمَ . مئاتُ الجواري ، وأطْعِمَةٌ خَلَبَتْ آكِليها ... نَعَمْ كلُّ شيءٍ لَدَيْهِ ولكنَّهُ الصَّفْوُ مُمْتَنِعٌ ليسَ يأتِي إليهِ سِوَى لحَظاتٍ قليلَهْ .

ترامَتْ لقَلْبِيَ وَسْوَسَةٌ . رُبَّمَا أَقْرَبُ النُّدَماءِ يُدبِّرُ – من حَسَدٍ – للوزيرِ مَكيدَهْ .

فآهٍ وزيرَ الخليفةِ ها أنتَ في موضِعِ الظنِّ فاسْتَحْكَمَتْ حولَكَ الحلقاتُ . ستَجْلِسُ في السجنِ فوقَ المساميرِ مُنْتَظِرًا أنْ تَئولَ إلى تَلَفٍ . كنتَ في الزهْوِ تزدادُ طُولاً وها أنتَ مُنْقَلِبٌ لبقايا هزيلَهْ .

عـذابُـكَ في السـجـنِ يَـمْـنَعُ نَـفْـسَـكَ
أنْ تـتـعَـجَّـبَ من رغَـبـاتِ الليـالي
الرهيبـهْ .

قصيرٌ زمانُ السقوطِ بِبِئْرٍ سَحيقَهْ .

لقد خَلَقَ اللهُ بَعْضَ الطيورِ من الشَّوْقِ .
أغْـمَـضْتُ عَـيْـنِـي على غَـفْـوَةٍ فكأني
دَخَلْتُ غَمامَهْ .

وها أيقظَتْنِي روائحُ بَغْدادَ في الفَجْر ،
والظُّـلُـماتُ أمامِي تزولُ عن المسجدِ
المُتعالِي ، ومِنْ خَلفِهِ قد تَخَفَّتْ بُيوتٌ
فقيرَهْ .

حِمَى العابرينَ ، ومأوَى النفوسِ التي زَهِدَتْ ، والقلوبِ الضَّلِيْلَهْ .

أحاطتْ عطورٌ بسوقِ الجواري فما إنْ دخلتُ شعرتُ الأزِقَّةَ تأخذُنِي من هنا لهنالكَ حتى احْتَوانِي غروبٌ بسوقِ العطارَهْ .

بآخِرِ بَيتٍ فتًى هائمٌ قالَ لِي " **سأموتُ من العشقِ بعد ليالٍ ثلاثَهْ .**

أبِـي فـارسِـيٌّ وأمِّـيَ من حَـلَـبٍ عَـلَّمـانِـي
صُـنـوفَ الـغـنـاءِ ، وفَـنَّ مـنـادمـةِ الأغـنـيـاءِ
لـعـلّـيَ أخـرجُ مـن حَـلَـكِ الـفَـقْـرِ لـكـنـنِـي
قـد رأيـتُ إِذَا مـا أطَـعْـتُـهُـمَـا أنـنِـي سـوفَ
أذهَبُ نَحْوَ حياةٍ بَغيضَهْ .

فَـوَلَّـيْـتُ وجـهِـي إِلىٰ العُـلَـمَـاءِ . عَـشِـقْـتُ
حَـيَـاةَ الـنُّـحاةِ ... أغـيبُ خِـلالَ الـمَـعَـانِـي ،
وأَمـزِجُ بينَ العِبَاراتِ ثُـمَّ أُفَـكِّـكُـها لِحروفٍ.
علىٰ كلّ حَرْفٍ علامَهْ .

وفي الليلِ أُهْدِرُ نَفْسِي رويداً رويداً
بِكَوْنٍ قديمٍ يَزيدُ اتِّساعاً يُسَمَّىٰ
الكتابَهْ .

إلىٰ أنْ شعرتُ عَبيراً توقَّفَ مُنتظِراً
خَلْفَ بابِي ... فَتَاةٌ تُسَمَّىٰ يَمامَهْ .

سَبَوْهَا بحرْبٍ مع الرومِ . لَمْ تَسْتطِعْ
أنْ تعيشَ حياةَ المُجونِ التي في
بيوتِ النِّخاسَهْ .

فَـفَـرَّتْ إِلـيَّ وصـارتْ لِـقَـلْـبِـيَ جَـنَّـتَـهُ المُـسْـتَـبَـاحَـهْ .

لـقَـدْ عَـشِـقَـتْـنِـي فَـصِـرْتُ كـأنِـي دَخَـلْـتُ بـلادًا تـعـيـشُ بـلا فِـتَـنٍ وبـلا ظُـلْـمِ جُـنْـدِ الخلافَهْ .

وفي لـيـلـةٍ هَـبَـطَـتْ عُـصْـبَـةٌ تَـبْـتَـغـيـنـا ولـكـنـنِـي قـد فَـرَرْتُ وحـيـدًا إِلـىٰ صَـحَـرَاءٍ قريبَهْ .

ذهـبْـتُ إِلـىٰ نـاسـكٍ أطـلـبُ الـنُّـصْـحَ أخْـبَـرَنِـي أنَّ مَعْشوقتِي سَحَروها غَزالَهْ .

هي الآنَ بينَ نخيلِ الفُراتِ تموتُ
بطيئًا لِفَرْط المَلالهْ .

وأخْبَرَني أنني سأموتُ مِنَ العِشْقِ عِنْدَ
زوالِ الهلالِ ، وها إِنَّهُ زائِلٌ في ليالٍ
ثلاثَهْ .

فَخُذْ - أنتَ مِثْلي بَعيدٌ عن الأهلِ -
خُذْ جَسَدي بعدَ مَوتي وضَعْهُ بِهَذِي
الغلالَهْ " .

فَقُلْتُ لَهُ "لَوْ رَحَلْتَ إلى بَلَدٍ لا يزولُ
الهلالُ بِهِ لَنْ تَموتَ فَتَسْقُطَ عَنْكَ
النُّبوءهْ .

وداعًا ... هناكَ غناءٌ يُنادِي ، وبَعْضُ الغناءِ طيورٌ سجينَهْ ".

أصوات

تَبارَكَ مَنْ أَلْهَمَ النَّفسَ خيفَهْ

فَغِبْنا عن الناسِ تحتَ السَّقيفَهْ

نُرَدِّدُ أسماءَه دونَ وعْيٍ

فَتُلْقَى علينا ظلالٌ خفيفَهْ

عَرَفْنا بأنَّ الهَوَى عَثَراتٌ

ومِنْ بعدِها الظُّلُماتُ الكثيفَهْ

فَغِبْناعن الناسِ تحتِ السَّقيفَهْ

أَناشِيدُنا كَسماءٍ شَفيفَهْ

لقد خَلَقَ اللهُ بَعْضَ النجومِ من الدَّمعِ . أغْمَضْتُ عَينِي على حُلُمٍ فَرَأيتُ شيوخًا تُخَبِّرُنِي أنَّ هَذِي القصيدةَ صُبْحٌ صَغيرٌ سيُزعِجُ بَعْضَ الكهوفِ المُخيفَهْ .

تَقَدَّمَ منِّيَ أكثرُهُمْ حِكْمَةً . شَقَّ صدري ، وأخرجَ قَلْبِي ، وأَرْسَلَهُ طائرًا لجبالِ تِهَامَهْ .

فَغَابَ يُحَلِّقُ تأخُذُهُ قَصَصُ الأنبياءِ إلى قَصَصِ الأنبياءِ . هناكَ المعانِي دموعٌ وبَعْضُ الدموعِ مَعَانٍ جميلَهْ .

رَأَى بينَ حَرْبٍ وحَرْبٍ ليالي
القُدامَى قدِ اسْتَرْسَلَتْ في
العِبادَهْ .

رَأَى ما رَآهُ وعادَ إلى سجنِهِ بعدَ
أن مَرَّ دَهْرٌ عليهِ ولَمْ يأخُذِ اللهُ
مِنْ عُمْرِهِ غَيْرَ ساعَهْ .

تَمَنَّيْتُ ألاّ أغادرَ هَذِي القصيدَهْ .

بها قد مَلَكْتُ طُيوراً مُهاجرةً وخيولاً
تَجُوسُ خلالَ مَفازَهْ .

وفي لَـيْـلَةٍ لا يُـعَـذِّبُـنِـي الشِّـعْـرُ فيها
تَـوَهَّـمْـتُ أنِـي سـأكْـتُـبُـها مِـنْ جديـدٍ
ولَو سَجَنونِي بعامِ الرَّمادَهْ .

فَيـا صاحِـبَيَّ رأيـتُ بأرضِ الْتـقـاءِ
الـشُّـعـوبِ بُـكاءً كثـيـرًا ونـورًا يُـبِـيْـنُ
لـنا حِـكْـمَـةَ الـدَّهْـرِ ثُـمَّ يُـخَـبِّـئُـها عـن
بصائِرِنا في عُجَالَهْ .

هُـنـالِـكَ شِـعْـرٌ تَـلاقَـتْ لَـدَيْـهِ الـحـيـاةُ
جـمـيـعـًا ، وإنَّ الـحـضـاراتِ بَـعْـضٌ مِـنَ
الذكْـرَياتِ الحَزينَهْ .

وكانَ الخليفةُ – مِنْ حَوْلِهِ الفُرْسُ – كِسْرَىٰ ، وجاءَ الطّغاةُ مِنَ التُّرْكِ مِنْ بَعْدِهِمْ . إنَّهُمْ يَخْلَعونَ الخليفةَ قَتْلاً إذا ما أَرَادُوا . لقد صارَ رأسُ الخليفةِ أرْخَصَ مِنْ بُرْتُقالَهْ .

ولَسْتُ الذي يَسْتَسيغُ المَباذِلَ . كَيْفَ انْجَذَبْتُ لأقْرَبِ حانَهْ ؟

صوت

هو العُمْرُ خَمْرٌ ونَفْسٌ جريحَهْ .

قد امْتَزَجا والحياةُ شَحيحَهْ .

كَأنَّ امْتِزاجَهما يا نَديمي

نُهَيْرٌ وبَعْضُ القِفارِ الفَسيحَهْ .

رَآنِـيَ كَـهْـلٌ فَـحـدَّثَـنِـي بِـلِـسـانٍ
تَـعَـثَّـرَتِ اللغةُ العربيةُ في فـارِسِـيَّـتِـهِ .
قالَ " إنَّ الـمَـمَـالِـكَ وَقْـتَ الأُفُـولِ
قَبيحَهْ .

لَـسَـوْفَ يَـراها الغُـزاةُ كَـرِيـشِ الطواويسِ
لـيـسَ يُخـيـفُ سِـوَى البُـلَـهـاءِ ولـيـسَ بِـهِ
مِنْ مَـهـابَهْ .

تَحَيَّرْتُ بينَ الديانات . إنَّ الإلَهَ يُغَيِّرُ في كُلِّ دينٍ أوامِرَهُ ورغائبَهُ . سوفَ يأتي زَمانٌ تَصيرُ الديانَاتُ فيهِ مَصابيحَ مَنْسِيَّةً في مَغارَهْ" .

وراحَ يُغَنِّي معَ المُنشِدينَ . فَقُلْتُ لِنَفْسِي لَكَمْ بَعُدَتْ خُطْوَتِي عن حُدَاءِ القوافِلِ في صَحَرَاءِ الجَزيرهْ .

خرجتُ إلى الليلِ . كانت زُهورُ البَنَفْسَجِ مُسْتَغْرِقاتٍ بنُورِ النجومِ . بَكَيْتُ كأنَّ هُناكَ صِلاتٍ مِنَ الحُزْنِ بينَ مماتِي وبينَ النجومِ البَعيدَهْ .

لَدَيَّ قليلٌ مِنَ الزَّهْوِ أحْسَسْتُهُ وهْوَ يَتْرُكُنِي وأنا أتَلاشَى خلالَ عَراءٍ مِنَ الصَّمْتِ ، والهَمْسِ ... إنَّ المسافاتِ خادعَةٌ ومَديدَهْ .

كأنِّي سمعتُ على البُعْدِ صَوْتًا :
" هي العَرَبُ القُدَماءُ نُفُوسٌ مُخَلَّدَةٌ ،
وأناشيدُ لا تَنْتَهِي قد تَعَذَّرَ أنْ تَحْتويْها
قَصيدَهْ .

وما قُلْتَهُ كانَ شَجْوًا تَبَاطَأَ
حينًا لديهِمْ وأسْرَعَ حينًا . وها
أنتَ – مُرْتَحلاً فى الكُهولَةِ مُسْتَوْحِشًا
ووحيدًا – تُغادِرُ هَذِي القصيدَهْ ".

من أبريل 1983 حتى نوفمبر 1987

أعمال الشاعر عادل عزت

	تاريخ الطبعة الأولى
١- المتصوفون الشعراء في الزمن العصيب	1983
٢- اختباء النور	1988
٣- العرب القدماء	1990
٤- هواجس الشاعر المقتول	1990
٥- السبعة	2000
٦- ظلام المرسم	2006
٧- البيت المسكون	2009

دواوين الشاعر عادل عزت على الموقع

www.adelezzat.com

السلام للطباعة
ت : 22989714 - 22960665 -22978425
فاكس : 22989251